

المصباح

١٣١٥

﴿ يوم السبت ٩ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٨٩٩ ﴾

﴿ فهم الدين ﴾

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون)
(قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج لعلمهم يتقون)

قال مولانا الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في تفسير قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) مأمثاله بالايجاز منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته أولا هداية الوجدان الطبيعي والالهام الفطري وتكون للاطفال وثانيها هداية الحواس والمشاعر وثالثها العقل ورابعها الدين . ثم بين ان الهداية الاولى والثانية يشارك الانسان فيهما الحيوان الاعجم وان الانسان لا يمكن ان يصل الى كماله المسند هوله بهما لما يمرض لهما من الخطأ وسوء الاستعمال وبعد ان ضرب المثل لهذا الخطأ وبين وجه حاجة الانسان الى العقل الذي ينتزع المعلومات الكلية من مدركات الحواس ويميز بين خطأها وصوابها قال ان العقل أيضاً عرضة للخطأ ومحل للقصور فلا يمكن ان يحيط بمصالح الانسان في افراده ومجموعه ويحدد أسباب سعادته في معاشه ومعاده ومن ثم كان الانسان في أشد الحاجة لاسيما بالنسبة لامر

المعاد - الى الهداية الرابعة هداية الدين وقد منحه الله اياها . ولما كان معظم
 قصور الحس والعقل في الانسان انما هو فيما يختص بسعادة المعاد كان بيان
 طريق السعادة الاخرية اهم ماجاء به الدين . وهل يتصور هذه الهداية ما يتصور
 غيرها من الخطأ وسوء الاستعمال فيتنكب أهلها جادة السعادة ؟؟ نعم فانه كما يخطئ
 الانسان في ادراك المحسوسات لمرض في حواسه وفي فهم المعقولات لآفة
 في عقله او لسوء استعمال الحس والعقل كذلك يخطئ في فهم الدين بسبب
 الامراض الروحية التي تطرأ على مزاج الامة

اذا تمهد هذا ففرضنا الآن كشف الغطاء عن شبهة أوردها على الدين
 أصحاب مجلة القنطف في الجزء الصادر منه في أول يونيو الذي نحن فيه عند
 تقرير كتاب (تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدنية) وملخص
 ما هنالك انه نشر في القطر المصري كتب وجراند حاول كتابها التوفيق بين
 الاصول الدينية والحقائق العلمية قال (وقد يجدون ذلك سهلاً لانه قلما يجسر
 أحد على مخالفتهم ولكن لو كان في البلاد علماء أشداء كالجلال السيوطي ...
 لثبت نار الحرب منذ الآن) « انظروا وتأملوا » ثم ذكر ان هؤلاء الكتاب
 يجيئون من سألهم عن السبب في عدم وجود هذه المدنية في ربوع المشرق
 بان سبب ذلك سوء فهم الدين وحمله على غير المراد منه وعلى هذا الجواب
 نبى شبهته الكبرى فقال (ولكن اذا قيل له ألا ينتظر من الدين ان يكون
 معناه واضحاً حتى لا يقع سوء في فهمه ولا يحمل على غير المراد منه وهل
 أساء كل علماء الشرق فهم دينهم منذ الف سنة أو حوالبها الى الآن ولم يتم
 منهم من يحمله على المراد منه الا في هذا العصر وفي هذا العام - اذا قيل له
 ذلك لم يكن الجواب عليه بالامر السهل » اه

ولا يخفى انه يعني بكلامه الاسلام والمسلمين لان الكلام معهم وهم الذين
نشروا الكتب والجراند في القطر المصري ويسهل عليهم الجواب الذي حسبه
صعباً حضرة السائل وهو

ان الكاتب اعترف معنا بان فهم الدين على غير وجهه انما وقع في الاسلام
من نحو الف سنة أي من بعد انتشار البدع وتفرق المذاهب في الدين
الواحد الذي جاء بالتوحيد والتأليف ونهى عن التفرق والاختلاف وبديهي
ان أصحاب الآراء والمذاهب من أهل الأهواء يحاولون تعزيز مذاهبهم
بالشبه مما تضاعفت افئضاحاً . ويؤلون الحجج المخالفة لهم مما أضاعت
افئضاحاً . فهذا هو السبب الاول في سوء فهم الدين الاسلامي والانحراف
به عن صراطه والسبب الثاني اختلاط المسلمين بامشاج من جميع الامم والملل
دخلوا في دينهم ومنهم الصادق ومنهم المنافق وهؤلاء اجتهدوا في افساد
تعاليم الدين وادخال بعض مسائل من أديانهم السابقة مصبوغة بصبغة
الاسلام ووضع الاحاديث المكذوبة على صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم
والسبب الثالث المدوى الممنوية وهي انه مامن رجلين يتصاحبان أو شمعين
يتمازجان الا ويسري من اخلاق احدهما وآدابه شيء للآخر وكذلك دب
الى الاسلام داء الامم قبلهم وكادوا يتبعون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً
بذراع كما في الحديث الصحيح * بذرت بذور هذه التعاليم المضرة في أرض الاسلام
وسقيت بامواه التعصبات والاهواء فتمت بالتدريج حتى صارت دوحات
كبيرة تتساقط منها الثمرات المضرة وكان من نبتة لها من العلماء الراسخين
انما يسمى في قطعها لافي قلعها ولذلك عاد كلما قطع منها أبسق مما كان . نشير
بهذا الى ما كان من مقاومة تلك التعاليم الفاسدة في كل عصور وان لم تقو

عليها وهو جواب عن قول المقنطف (وهل اساء كل علماء المشرق فهم دينهم منذ الف سنة او حواليها) نعم ان القرون الثلاثة الاولى هي التي كان الغلب فيها لتعاليم الدين الصحيحة واخلاقه وآدابه كما هو الشأن في كل دين ووفقا للحديث الشريف « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » فقول المقنطف لا يفتش عن فعل الدين في حروف كتبه بل في اخلاق اتباعه وافعالهم غير مسلم على اطلاقه فان الكتاب الذي هو اصل الدين كالقرآن مثلا اذا كان مصرحا بشئ فلا مندوحة عن القول بانه من الدين وان خالفه الذين يدعون اتباعه . نعم لا يجوز ان ينفق المتسبون لدين من الاديان على مخالفة اصوله في عصر النبوة وما يقرب منه ولكن اذا طالك الزمان تفتن الامة بالتحريف والتأويل وتضل سواء السبيل الا فرادا لا يكون لهم صوت في الامة مسموع واصحاب المقنطف يعرفون هذا من تاريخ الملل والى هذا يشير قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » اي خارجون عن هدي دينهم ونحن نأتي بمثال واحد مما خالف الجماهير فيه هدي الدين الاسلامي وهو من اصول العقائد ومن اهم ما جاء به الدين ومما له اثر كبير في سعادة الامم وشقاؤها الا وهو الاعتقاد بان لبعض البشر تأثيرا في النفع والضرر بقوة غيبية وراء الاسباب الظاهرة التي اقتضتها الحكمة الالهية وجعلتها مناط الاعمال وهذا الاعتقاد هو الذي شقي به قبل الاسلام من لا يحصى من الاقوام . هذا الاعتقاد هو الذي يقيد ارادة الانسان بارادة غيره من ابناء جنسه فيفقد استقلال الارادة الذي هو العامل الاكبر في السعادة البشرية . هذا

الاعتقاد هو الحجاب الكثيف بين الانسان وبين معرفة السنن الالهية في
 الترقى والتدلي وادراك اسباب الضر والنفع . هذا الاعتقاد هو المرض الذي
 يفسد العقل ويجعله يرجو مالا يرجى ويخاف مما لا يخاف . هذا الاعتقاد
 هو شعبة من الشرك كانت اكثر شعابه امتداداً وانتشاراً في الامم كلها ولذلك
 كانت عناية الاسلام بمحوه فوق كل عناية . يتوهم كثيرون ان الكفر
 والشرك اللذين يندد باهلها القرآن كثيراً هما عبارة عن انكار وجود
 الله تعالى وعن اعتقاد ان للكون آلهة غيره يخلقون كما يخلق ويرزقون كما
 يرزق مع ان هذين القسمين من الناس كانوا اقل الكفار والمشركين في كل
 زمان ومكان . وانما الشرك الذي كانت فاشياً في العرب وغيرهم ممن ظهر
 الاسلام فيهم هو الذي قال القرآن في اهله (ولكن سألتم من خلق
 السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ومثل هذه الآيات .
 كانوا يعتقدون كما يعتقد اكثر البشر ان مبدع الكون وخالقه واحد ولكنه
 لما كان غيباً مطلقاً جعلوا وجههم في عبادته بمض مظاهر قدرته الباهرة من
 خلقه من جماد وحيوان وانسان وزعموا ان تلك المظاهر هي الوساطة بين الله
 وبين عبادته في تفهمهم وضرهم ويملل علماءهم ذلك بان عامة الناس من
 الخطاة والمذنبين لا يليق بمخستهم ان يخاطبوا الجنب الالهي الرفيع بحاجتهم
 فلا جرم كانوا في حاجة الى واسطة بينهم وبينه كما هو الشأن عند عظماء الملوك
 والسلاطين . وهذا وان كان في ظاهره تعظيماً لله تعالى فقد عدته القرآن
 شركاً وذكر شبهة ذويه في معرض التشنيع والانكار حيث قال (انا انزلنا
 اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين الا لله الخالص والذين اتخذوا
 من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم

فيه يخلفون . ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار (وقال (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل النبيون الله بما لا يعلم ما في السموات وما في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) فانظر كيف لم يعتد بان اتخذهم شفعا ناف لكونهم معبودين لهم وكيف صرح بان دعوى الشفاعة افتات على الله تعالى حيث لم يكن باعلام منه . وقال فيمن كان يمتد هذه الوساطة والشفاعة من أهل الكتاب (اتخذوا أجباهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) ومعلوم ان أهل الكتاب لم تقل فرقة منهم بان رؤساءهم ارباب حقيقة يشاركون الله تعالى في الابدان والاعدام كما هو معروف من تاريخهم وانما هو اعتقاد الشفاعة والوساطة بين الله والناس في مصالحهم (١)

الوساطة الصحيحة بين الله وبين عباده هم الانبياء ووساطتهم انما هي في التعليم والارشاد لا في الخلق والابدان وقد بين الله ذلك في آيات كثيرة جاءت بصيغة الحصر لتكون نصاً قاطعاً لا عناق الا باطيل منها قوله تعالى (وما ارسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) وقوله (وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا) وقوله (ان عليك البلاغ) وقد نفى عن النبي الاعظم السيطرة والوكالة هل الناس بقوله (وما انت عليهم الا ميسيطر) (وما انت عليهم بوكيل) ونفى عنه الهداية بمعنى الايصال الى الخير بالفعل بقوله (ليس عليك هدايم ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله (انك لا تهدي من من احببت ولكن الله يهدي من يشاء) بخلاف الهداية بمعنى الدلالة بالتعليم

(١) ليس غرضنا في هذا الكلام الرد على هذه الفرقة من أهل الكتاب وانما هو

بيان ما هو تعليم القرآن في هذه العقيدة

فقد قال فيها (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وامره ان يتصل من دعوى النفع والضرر بقوله تعالى (قل لا املك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله) بل امره ان يثراً مع ذلك من امتلاك الرشد لهم بقوله (قل اني لا املك لكم ضراً ولا رشداً) ٢ قل اني لن يجيرني من الله احد ولن اجد من دونه ملتحداً ٣ الا بلاغا من الله ورسالاته) اي لا املك الا البلاغ من الله تعالى فلم يبق الا انه كما قال الله تعالى (قل انما انا بشر مثلكم يوحي الي) الخ

هذا كله نقطة من بحر توحيد القرآن ومع ذلك كله كان من امر المسلمين نحو ما قاله المؤرخ المحقق (دوزي) الهولندي فيما كتبه في الاسلام حيث قال ما مثاله (ان محمداً) عليه السلام) بذل كل فصاحه وجميع عنايته في اجتثاث جذور الوثنية ومحو اساطيرها من لوح الوجود وظل يجاهدها عشرين سنة حتى ظفر بها واستبدل بها التوحيد الخالص ولكن النوع البشري لما رسخ فيه من جذور الوثنية بالوراثة المتمكنة في الاحقاب الطويلة لم يكن مستعداً للثبات على هذه العقيدة عقيدة التوحيد ولذلك لم يمض على اتباع محمد اكثر من قرن واحد حتى ثابت اليهم الوثنية السابقة بأنواعها ولكن باسماء واللوان اخرى) ومن عرف الاسلام والمسلمين يعرف صحة قول دوزي هذا . دع عنك ذكرى الذين قالوا بالوهية الامام علي (كرم الله وجهه) في

(١) المعيان للهداية معروفان في اللغة وفي الغالب يتعدى اللفظ بالمعنى الاول بنفسه وبالمعنى الثاني بالي (٢) قوله تعالى (الا ما شاء الله) هذه الكلمة جاءت في القرآن بمعنى التأييد كما قوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ما شاء ربك) وقوله (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله) (٣) في الآية احتباك أي املك لكم ضراً ولا نفعاً ولا رشداً ولا غواية فحذف من كل منهما ما أثبت مقابله في الاخرى (٤) ملتحداً أي ملتحداً التحي اليه

المصر الاول فقد كان صوتهم ضعيفاً وضلالهم معروفاً وارم بنظرك الى فرق
 الباطنية الذين كانوا سلافي رثة الامة لم تنج من كرب ميكروبه طائفة منها
 خلقوا الاحاديث وحرفوا كلم القرآن عن مواضعه وسرت فتنهم الى الطائفة
 المعتدلة من المسلمين باسم التصوف قال الامر الى ان فشا في اهل السنة
 الغلو في شيوخ الصوفية كغلو الباطنية في ائمتهم وخلفائهم . وهو اعتقاد
 ان لهم تصرفاً في الكون وراء الاسباب الظاهرة . فالجاهلون يعتقدون ان
 هذا لهم بأنفسهم ولا يتفكرون بالوساطة وما في معناها من التأويلات حتي
 اتنا نشاهد عامتهم تتحامي الخلف كذباً بالشيوخ المعتقدين لاسيما عند اضرحتهم
 ويحلفون بالله كذباً وهم يعلمون . ويشاركهم في هذا التعظيم والاعتقاد كثير
 من اللابسين لباس العلماء ولكنهم يؤولون لهم ولا ينفهمون بان المحذور في الدين انما هو
 الاعتقاد بالاستقلال وهم انما يعتقدون انهم واسطة بين الله والناس . ولكن اذا سألتهم
 ما معني هذه الوساطة وما هو الدليل عليها وكيف لم يصرح بها القرآن وهي في هذه
 المكانة من الاهمية والله يقول (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وكيف يمكن
 تأويل النصوص الكريمة التي تنفيها - اذا سئلوا عن هذا يرتكون بين
 امواج الخيرة يدفعهم ريب ويتلقاهم شك الى ابد الابد
 ياسبحان الله . ان الله تعالى وصف مشركي الجاهلية بانهم عند شدة
 الضيق يدعون الله تعالى وحده مخلصين لامتوسطين فقال (واذا غشيهم
 موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون)
 ولكننا نري التسمين بسمه الاسلام ينادون عند أشد الضيق يا باز ياسيد
 يارفاعي يامتبوي وما اشبه هذه الاسماء التي ما نزل الله بدعوتها من سلطان
 اليس من العجيب ان يقال ان الدين لا يؤخذ من كتبه فترك نواهي

القرآن البليغة الصريحة عن الشرك الظاهر والباطن ويحكم على الاسلام بقول هؤلاء النوغاء الذين يزعمون ان المتصرفين في الكون أربعة - الجيلي والرفاعي والبدوي والدسوقي - اذا كان لله سبحانه وكلاء من الاموات يدبرون الكون فلماذا لم يكن منهم ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً

وقد طال بنا الشرح فلنمسك عنان القلم فقد حصص الحق وظهر ان انحراف الكثير من الناس عن هدي الاسلام من سوء الفهم وان سوء الفهم ليس لصعوبة احكامه وبعدها من الافهام وانما هو لامراض اجتماعية طرأت على الامة فحالت دون اتقاعها بدينها كما حالت دون الانتفاع الكامل بعقولها وحواسها . ولما كان الاسلام دين الفطرة بشهادة القرآن فاننا نرجو كما يرجو عقلاء العلماء من المسلمين ان يكون ظهور قوانين الفطرة ونواميسها من أعظم المنبهات الى فهم الاسلام على حقيقته . ولسنا نقول بهذا انه بين جميع نواميس الطبيعة ولكن نقول انه بين ما يحتاج اليه الناس لسعادتهم في دينهم وديانهم وسنين هذا في مقالة اخرى انشاء الله تعالى

✽ استنهاض همم ✽

٧

اذا بقيت الحكومة المراكشية تتسكع في ظلمات الجهالة وتتكب منهاج المدالة واسترسلت في اعراضها عن ملافاة الخلل وشعب الصدوع التي تودي بمملكتها وتهوى بها الى هاوية الاستعباد وتزج بها في عالم الخفاء لاجرم انه يصيبها ما اصاب جارتها الاندلس والجزائر ومما يبعث الشجن ويزيد في الحزن وتجيئ النفوس له حسرة ما قرأه لهذه الايام في صحف الاخبار عن جواثب